قصص القرآن (٥)

قصة ميلاد موسى — قصة خروج موسى إلى مدين

قصة عصا موسى — مؤمن آل فرعون

هلاك فرعون

تأليف

عبد العزيز سيد هاشم — ياسر علي نور

مصطفى عبد العزيز — محمد محمود القاضي

عاطف عبد الرشيد

تهذيب وتدقيق

محمد بسام حجازي

obeikan.com

obeikan.com

قصّةُ مِيلادِ مُوسَى

علِمَ فِرعونُ بأنَّ نُبوءةً انتشرَتْ في بَني إسرائيلَ بِأنَّه سوفَ يُولَدُ فيهِم صَبيٌّ يَكونُ هلاكُ فِرعونَ علَى يدَيْهِ، فجمعَ حاشيتَه وكِبارَ قُوّادِه، ثُمَّ أمرَهُم بقَتلِ كلِّ طِفلٍ رَضيعٍ يُولَد في بَني إسرائيلَ.

انطلقَ جُنودُ فِرعونَ يُفتِّشونَ في الدِّيارِ، فإذا وجدُوا طفلًا رَضيعًا قتلُوهُ دُونَ رحمةٍ، غيرَ مُهتمِّينَ بدُموعِ الأُمّهاتِ وتوسُّلاتِ الآباءِ.

وكانَ هُناكَ بَيتٌ صغيرٌ علَى ضِفافِ النِّيلِ، وُلدَ فِيه طِفلٌ رَضيعٌ هوَ مُوسَى، ولَمْ يَصلْ إلَيهِ جُنودُ فِرعونَ.

وشعرَتْ أُمُّ مُوسَى بالقلقِ علَى مَصيرِ ابنِها.. فرَحِمَ اللهُ ضعفَها، وأوحَى إلَيْها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فصَدَّقَتْ أُمُّ مُوسَى وحيَ ربِّها، واستجابَتْ لِأمرِه، فوضعَتِ ابنَها الرَّضيعَ في صُندوقٍ صَغيرٍ،

ثُمَّ أَلقَتْ بِهِ في النَّهرِ، وأمرَتِ ابنتَها أَنْ تُراقِبَه.

وظلَّ الصُّندوقُ عائِمًا فوقَ سطحِ الماءِ، حتَّى دفعَه المَوجُ بالقُربِ مِن قصرِ فِرعونَ، فالتقَطَتْهُ الجَواري، وأسرَعْنَ بِه إِلَى امرأةِ فِرعونَ. فلَمّا رأتِ الطِّفلَ أحبَّتْهُ، وطلبَتْ مِن زَوجِها ألّا يَقتلَه، وقالَتْ لَه: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، فنزلَ فِرعونُ علَى رَغبةِ زَوجتِه، وتركَهُ.

ففرِحَتِ امرأةُ فِرعونَ بِه، وأمرَتْ بِإحضارِ مَن تُرضعُه، لكنَّ اللهَ سُبحانَه حرَّمَ علَيهِ المَراضعَ، فلَمْ يَقبلِ الرَّضاعةَ مِن أَيِّ امرأةٍ، فخافَتْ زوجةُ فِرعونَ علَيهِ، وأمرَتْ بالبحثِ في كُلِّ مكانٍ عمَّن تُرضعُه.

وكانَتْ أُختُه تُراقبُ المَوقفَ مِن بَعيدٍ، فقالَتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؟ فوافَقُوا، فعادَتِ البِنتُ لِتُخبرَ أُمَّها بالخَبرِ، فجاءَتْ أُمُّ مُوسَى، وأخذَتِ الوَليدَ بَيْنَ ذِراعَيْها، ثُمَّ قرَّبَتْه مِن صدرِها، فرَضِعَ مِنها في الحالِ.

وفرِحَ الجميعُ حِينما رأَوْا مُوسَى يَرضَعُ مِن تلكَ المَرأةِ، فطلبَتِ امرأةُ فِرعونَ مِن أُمِّ مُوسَى أَنْ تُقيمَ عِندَها فتُرضعَه، فرفضَتْ وتعلَّلَتْ بأنَّ لَها زَوجًا وأَولادًا يَحتاجُون إِلَى رِعايتِها، وعرضَتْ أُمُّ مُوسَى علَيْها أَنْ تَأخذَه معَها، فوافقَتْ وأَعطَتْها أَجْرًا نظيرَ الرَّضاعةِ، فعادَتْ أُمُّ مُوسَى بابنِها إِلَى دارِها راضيةً، قالَ تَعالَى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

قصّةُ خُروجِ مُوسَى إِلَى مَدْيَنَ

عاشَ مُوسَى في قصرِ فِرعونَ حتَّى كبِرَ، وأصبحَ شابًّا قويًّا، وكانَ يُحبُّ الخيرَ، ويَنصُرُ المَظلومَ، ويُساعدُ العاجزَ والمِسكينَ، ويُعينُ المُحتاجينَ.

وذاتَ يومٍ رأَى مُوسَى رجلًا مِن قَومِه بَني إسرائيلَ يتشاجَرُ معَ رجلٍ مِصريٍّ، فاستغاثَ الإسرائيليُّ بمُوسَى، فوكزَ مُوسَى المِصريَّ بِعصاهُ فوقعَ مَيْتًا. فاستغفرَ مُوسَى ربَّه وتابَ وندِمَ.

وأصبحَ مُوسَى خائفًا يُفكِّر فيما سيحدُثُ لَو عرفَ القومُ بِما جرَى. ومرّةً أُخرَى تشاجرَ الإسرائيليُّ معَ رجلٍ آخرَ، وطلبَ مِن مُوسَى أَنْ يَنصُرَه، فغضِبَ مُوسَى مِنه، وأخذَ يُؤَنِّبُه ويلومُه علَى كثرةِ شِجارِه، وقالَ لَه: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾. وفُوجئَ مُوسَى بأنَّ الرجلَ يُفشي سرَّه، ويَقولُ لَه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾؟ وانتشرَ الخبرُ بينَ النّاسِ، وعرَفَه فِرعونُ، فأمرَ بقتلِ مُوسَى والِانتقامِ مِنهُ.

وجاءَ رجلٌ مِن أَقصَى المَدينةِ إِلَى مُوسَى، وقالَ لَه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فازدادَ خَوفُ مُوسَى، وخرجَ مِن مِصرَ سريعًا، خشيةَ أَنْ يُدركَه أحدٌ مِن جُنودِ فِرعونَ، واتَّجهَ مُوسَى إِلَى اللهِ يَدعُوه، ويَقولُ: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وظلَّ مُوسَى يَسيرُ في الصَّحراءِ، حتَّى عبرَ سَيناءَ ووصلَ إِلَى بلدٍ تُسمَّى مَدْيَنَ، فوجدَ النّاسَ مُجتمعينَ حولَ بِئرِ ماءٍ ليَسقُوا أغنامَهُم، ويأخذُوا حاجتَهُم مِن الماءِ؛ وشاهدَ فتاتَيْنِ تَقفانِ بأغنامِهِما بَعيدًا عَنِ الزِّحامِ، فتعجَّبَ مِن ذلكَ، ثُمَّ

تقدَّمَ إلَيْهِما وسألَهُما عَن سِرِّ ابتعادِهِما عَنِ النّاسِ، فأجابَتا بأنَّهُما تنتظرانِ حتَّى يَنتهيَ الزِّحامُ ويَبتعدَ الرُّعاةُ، وأنَّ سببَ خُروجِهما مِن بَيتِهما هوَ ضعفُ أَبيهِما وكونُه شيخًا كبيرًا لا يَقدِرُ علَى العملِ، فقابلَ مُوسَى هَذا الحياءَ وهذِه العِفّةَ مِنَ الفتاتَيْنِ بالشَّهامةِ والنَّجدةِ، وسقَى لَهُما الأغنامَ.

وكانَ مُوسَى مُتعَبًا مُجهَدًا، فجلسَ تحتَ ظِلِّ شجرةٍ، وظلَّ يَدعُو اللهَ سُبحانَه أَنْ يَجُودَ علَيهِ مِن فَضلِه وكرَمِه قائلًا: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

وبعدَ قليلٍ، رجعَتْ إحدَى الفتاتَيْنِ وأخبرَتْه بأنَّ أباها يُريدُ أَنْ يَجزيَه أَجْرَ السِّقايةِ، فلَمّا ذهبَ مُوسَى إلَى ذلكَ الأبِ، وكانَ رجلًا صالحًا، حكَى لَه قِصَّتَه، فطَمْأَنَه الرجلُ بأنَّه قَدِ ابتعدَ عَن فِرعونَ وقومِه، ثُمَّ عرضَ علَى مُوسَى أَنْ يتزوَّجَ إحدَى ابنتَيْهِ مُقابلَ أَنْ يَرعَى لَه الأغنامَ ثمانيَ سِنينَ أو عشرًا، حَسْبَما يشاءُ، فوافقَ مُوسَى، وتزوَّجَ واحدةً مِنهُما، وعاشَ معَه في أرضِ مَدْيَنَ عَشْرَ سِنينَ.

قصّةُ عَصا مُوسَى

اشتدَّ بمُوسَى الشَّوقُ لِرؤيةِ أهلِه، بعدَ قُرابةِ عَشرِ سنواتٍ عاشَ فيها بَعيدًا عَن مِصرَ، فأخذَ زادَه ومتاعَه، وانطلقَ هوَ وزَوجتُه، وسارا حتَّى وصَلا إلَى سَيناءَ.

ودخلَ اللَّيلُ علَى مُوسَى وأهلِه، وكانَ الجَوُّ مُظلِمًا وباردًا، فرأَى مُوسَى نارًا تَظهرُ مِن بَعيدٍ، فقالَ لِأهلِه: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠].

فلَمّا اقتربَ مُوسَى مِنَ النّارِ ناداهُ اللهُ سُبحانَه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، فلَمْ يَتمالَكْ مُوسَى نفسَه مِن تلكَ المُفاجأةِ، فأزالَ اللهُ عَنهُ الرَّهبةَ وآنسَهُ بالحديثِ، فقالَ لَه: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؟ فشعَرَ مُوسَى بالأمانِ، وردَّ قائلًا: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا

عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾، فأمرَهُ اللهُ بأَنْ يُلقيَ العَصا مِن يدِه، فأَلْقاها فإذا بِها تتحوَّلُ إِلَى حيّةٍ ضخمةٍ، ففزِعَ مِنها، وفرَّ هاربًا، فناداهُ ربُّه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، فاطمَأَنَّ قلبُ مُوسَى وعادَ، فقالَ لَه ربُّه: ﴿خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾، فأمسكَ مُوسَى الحيّةَ، فإذا بِها تَعُودُ عَصًا كَما كانَتْ. ثُمَّ أمرَه اللهُ سُبحانَه أَنْ يُدخِلَ يدَه في جَيبِه ثُمَّ يُخرِجَها، ففعلَ مُوسَى فإذا بِه يَجدُ يدَه بَيضاءَ مُنيرةً كالقَمرِ.

وقَدْ أعطَى اللهُ مُوسَى هاتَينِ المُعجزتَيْنِ لِتأييدِه في دَعوتِه لِفِرعونَ، وطلبَ مُوسَى مِنَ اللهِ أَنْ يُؤيِّدَه بأخيهِ هارُونَ؛ لِيُعينَه ويُؤازرَه ويُساعدَه في الدَّعوةِ، فاستجابَ اللهُ لَه. وانطلقَ مُوسَى معَ أَخيهِ إِلَى قَصرِ فِرعونَ، ولَمّا دَخلا علَيهِ قالَ لَه مُوسَى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فتكبَّرَ فِرعونُ وقالَ لَه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ فقالَ مُوسَى في رِفقٍ ولِينٍ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ .

فغضِبَ فِرعونُ، ونظرَ إِلَى حاشيتِه يُحرِّضُهُم ويُثيرُهُم علَى

مُوسَى قائلًا: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟ فتَوجَّه مُوسَى هوَ الآخرُ إِلَى الحاضرينَ، وقالَ لَهُم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فثارَتْ ثائرةُ فِرعونَ، وقالَ لَهُم: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، واستمرَّ مُوسَى يَتكلَّمُ عَن ربِّهِ ويقولُ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ثُمَّ نظرَ فِرعونُ إِلَى مُوسَى بِغضَبٍ، وقالَ وهوَ يُهدِّدُه: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، فردَّ علَيهِ مُوسَى بثَباتٍ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ قالَ فِرعونُ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فألقَى مُوسَى عصاهُ، فإذا بِها تتحوَّلُ إِلَى ثُعبانٍ عَظيمٍ، فدُهِشَ القومُ، وارتعدَ فِرعونُ مِن هَولِ المُفاجأةِ، ثُمَّ أخرجَ مُوسَى يدَه مِن جَيبِه، فصارَتْ بَيضاءَ مُنيرةً للنّاظرينَ.

فاتَّهَمَ فِرعونُ مُوسَى بأنَّه ساحرٌ، وتوعَّدَهُ أَنْ يَأتيَ لَه بالسَّحَرةِ ليَهزمُوهُ.

وجاءَ اليومُ المَوعودُ، فأحضرَ فِرعونُ السَّحَرةَ مِن كلِّ مكانٍ، وتَجمَّعَ النّاسُ، فقالَ السَّحَرةُ لِمُوسَى: ﴿إِمَّآ أَن

تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾، فطلبَ مِنهُم مُوسَى أَنْ يَبدَؤُوا هُمْ أَوَّلًا، فألقَوْا حِبالَهُم وعِصيَّهُم، فسَحَرُوا أَعيُنَ النّاسِ، حتَّى تخيَّلَ لَهُم أَنَّ الحِبالَ والعِصيَّ ثَعابينُ تَزحفُ وتتحرَّكُ، وهُنا دَعا مُوسَى ربَّه، ثُمَّ ألقَى عَصاهُ، فصارَتْ حيّةً رَهيبةً عَظيمةً، ابتلعَتْ كلَّ الحِبالِ والعِصيِّ.

نظرَ السَّحَرةُ في دَهشةٍ، وعلِمُوا أنَّ ما صنَعَه مُوسَى لَيسَ مِن السِّحرِ، وإنَّما هيَ مُعجزةٌ مِن عِندِ اللهِ، فسَجدُوا لِربِّهم، وأعلَنُوا إيمانَهُم باللهِ الواحدِ القهّارِ، فغَضِبَ علَيهِم فِرعونُ، وتوعَّدَهُم بالقتلِ والرَّجمِ والصَّلبِ، ففَضَّلُوا المَوتَ وهُمْ مُؤمنونَ علَى حياةِ الكُفرِ والضَّلالِ.

مُؤمنُ آلِ فِرعونَ

كانَتْ كِفّةُ مُوسَى عليه السلام هيَ الأرجحَ، فخافَ فِرعونُ أَنْ يَنحازَ النّاسُ إلَيهِ، فلَمْ يَجدْ أمامَه مِن سَبيلٍ غيرَ أَنْ يتوَعَّدَ مُوسَى بالقتلِ ويُهدِّدَه، فقالَ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾

[غافر: ٢٦]، فلَمْ يَعْبأْ مُوسَى عليه السلام بتَهديدِ فِرعونَ ووَعيدِه، وفوَّضَ أمرَه إلَى اللهِ، وقالَ: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

وكانَ مِن قومِ فِرعونَ رجلٌ آمَنَ بمُوسَى، ولكنَّه كتمَ إيمانَه عَنِ النّاسِ؛ فلَمّا علِمَ هَذا الرجلُ أَنَّ فِرعونَ سيَقتلُ مُوسَى قالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾؟

وهُنا أحسَّ فِرعونُ بأنَّ مُوسَى ليسَ وَحدَه، وأنَّ أَتباعَه يَتزايدُون بِاستمرارٍ، وكانَ لِزامًا علَيهِ أَنْ يَستميلَ قومَه إِلَى جانبِه بالكذبِ علَيهِم، فقالَ لَهُم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

ووجدَ المُؤمنُ أنَّ سبيلَ الإقناعِ الهادئِ لَمْ يأتِ بثَمرةٍ معَ هَؤُلاءِ المُعاندينَ، فلجأَ إِلَى وَسيلةٍ أُخرَى لعلَّهُم يتذكَّرُون،

فيَخضعُوا لِأمرِ رَبِّهِم، فراحَ يَذكُرُ لَهُم أخبارَ الأُممِ السّابقةِ، وجزاءَ الأقوامِ الّذينَ عصَوُا اللهَ وكذَّبُوا رُسُلَه؛ فاستحقُّوا الهَلاكَ، فقالَ لَهُم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾، ولكنَّهُم لَمْ يَستجيبُوا لِندائِه، ولَمْ يَنتفِعُوا بِقولِه، فسلكَ بِهِم طريقًا آخَرَ للدَّعوةِ، فوضعَهُم أمامَ مَشهدٍ مُثيرٍ مِن مشاهدِ يومِ القيامةِ، فقالَ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

ثُمَّ ذكَّرَهُم بِما فعلُوا مِن قبلُ معَ يُوسفَ، فقالَ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾.

وطلبَ فِرعونُ المَغرورُ مِن وَزيرِه هامانَ أَنْ يَبنيَ لَه بُنياناً عالياً لِيصعَدَ إِلَى السَّماءِ عسَى أَنْ يرَى إلهَ مُوسَى.

وهُنا ازدادَ الرجلُ المُؤمنُ إيمانًا بأنَّ فِرعونَ يَخدعُ قومَه ويأخذُهُم إلَى التَّهلُكةِ، وأنَّه يُضلِّلُهم ويَخدعُهم بزَعمِه الكاذبِ، فأرادَ المُؤمنُ أَنْ يُبيِّنَ للنّاسِ أَنَّ الرَّشادَ في الإيمانِ باللهِ وبِما يدعُو إلَيهِ مُوسَى، فقالَ لَهُم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

وكانَ الرجلُ فَصيحًا بَليغًا، قادِرًا علَى التّعبيرِ عَن دينِه ومُعتقَدِه، فاستطاعَ أَنْ يَدحضَ كَثيرًا مِن مَزاعمِ فِرعونَ وأكاذيبِه، ولَمْ يَخَفْ مِن تَهديداتِ فِرعونَ، بلْ إنَّه تعجَّبَ مِن حُمقِه وجَهلِه إِذْ ظنَّ أنَّ العذابَ يُمكنُ أَنْ يَصرفَ المُؤمنَ الحقَّ عَن دِينِه، أو يَثنيَه عَن تبليغِ دَعوتِه، وقالَ في ثَباتٍ ويقينٍ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ

إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

وأحسَّ الرجلُ المُؤمنُ أنَّ هَؤلاءِ الضّالينَ لَنْ يُؤمنُوا ولَوْ جاءَتْهُم كلُّ آيةٍ حتَّى يرَوُا العذابَ الأليمَ، ففوَّضَ أمرَه إلَى ربِّه ومَولاهُ، يَفعلُ ما يَشاءُ ويَختارُ، وكانَ آخرَ ما قالَه لَهُم: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

هَلاكُ فِرعونَ

واشتدَّ أذَى فِرعونَ لِبني إسرائيلَ، فأمرَهُمُ اللهُ أَنْ يَخرُجُوا مِن مِصرَ، وعَلمَ فِرعونُ بخُروجِهم، فجَمعَ جُنودَه، وانطلقَ خلفَهُم، فلَحِقَ بهِم عِندَ ساحلِ البَحرِ، فلَمّا رآهُ بَنُو إسرائيلَ تأكَّدُوا أنَّهُم هالكونَ، وأَنَّ فِرعونَ سيَلحقُ بِهِم فقالُوا وقَدْ ملأَ الفَزَعُ قلوبَهُم: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾! فقالَ مُوسَى في إيمانٍ وثقةٍ باللهِ: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فأوحَى اللهُ إلَيهِ أَنْ يَضربَ البحرَ بعَصاهُ ففعلَ، فانفلقَ البحرُ نِصفَيْنِ،

وظهرَ في وسَطِ البحرِ طريقٌ مُمهَّدٌ صالحٌ للسَّيرِ، فعبَرَ مُوسَى وقومُه إلَى الضِّفّةِ الأُخرَى للبحرِ، وكانَ فِرعونُ وجُنودُه يَتبعُونَهُم، فأَمرَ اللهُ سُبحانَه المِياهَ أَنْ تَرجعَ كَما كانَتْ، فأغرَقَتْ فِرعونَ وجُنودَه جَميعًا، ولَمْ يَبْقَ مِنهُم أحَدٌ.

ومشَى بَنُو إسرائيلَ في الصَّحراءِ، فاشتدَّتْ علَيهِم حرارةُ الشَّمسِ وحلَّ بهِمُ التَّعبُ والإرهاقُ، وشَعرُوا بالعَطشِ الشّديدِ، فظلُّوا يَبحثُونَ عَنِ الماءِ طَويلًا دُونَ جدوَى، وكادَ الظَّمأُ أَنْ يَفتِكَ بهِم، فدَعا مُوسَى ربَّه راجِيًا عفوَه وطامِعًا في فَضلِه، وطلبَ مِنهُ أَنْ يُنقِذَ قومَه، فاستجابَ اللهُ لِدُعائِه، وأَوحَى إلَيهِ أَنْ يَضرِبَ صخرةً كَبيرةً بالعَصا، فضربَ مُوسَى الصَّخرةَ بعَصاهُ، فانفجرَتْ مِنَ الصَّخرةِ اثْنَتا عَشْرةَ عَيْنًا مِنَ الماءِ، فشَكرُوا اللهَ كَثيرًا وشَرِبُوا حتَّى ارْتَوَوْا.

** ** **